﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران: 25]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

القاعدة العامَّة في الجزاء أنَّ كُلَّ نَفْسٍ تُوَفَّى ما كَسَبَتْ يوم القيامة

لَمَّا ذكر تعالى ما آل إليه اليهود منَ التّحريف، والتّزييف في الدّين، والمعتقداتِ الباطلةِ، وحكى عنهم اغترارهم بما هم عليه من الجهل، بيَّن أنه سيجيء يوم يزول فيه ذلك الجهل، وينكشف فيه ذلك الغرور، وَرَدَّ عليهم سبحانه بما فيه وعيدٌ لهم، ودحضٌ لمزاعمهم، وغرورهم في دين اللّه، وذلك بذكر القاعدة العامَّة في الجزاء[1]، فبيّن أنَّ كلَّ نفس ستُوفَّى جزاءَ ما كسبت يوم القيامة، فلا ظلم فيه ولا محاباة لأحد.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَيْبَ﴾: الرَّيب والرِّيبَة: شكّ مع خوف، أو الشّكّ مع الظِّنّة والتُّهمة بما يُزعِجُ ويَسوءُ، رابني الأَمرُ يَرِيبُني: أدخل عليَّ شكًّا وخوفًا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود: 110]. ورَيبُ الدّهر: صروفه وتقلُّباتُه، وسُمِّيَ ريبًا؛ لأنّ الإنسان أبدًا في ريب المنون من جهة وقته، لا من جهة كونه، لَمَا يتوهّم فيه منَ المكر من حيث تشكُّكه في وقتِ حُصوله[2].

والمعنى هنا: لا شكَّ في وقوعِه.

2) ﴿وَوُفِّيَتْ﴾: الوفاء والوفاة: إكمالُ الشّيء وإتمامه، أو: زيادة يبلغ بها الشّيءُ تمامَه. يقال: وَفَى يَفِي، ووَفَّى يُوَفِّي، وأَوفَى يُوفِي. وَفَّاهُ حقَّه: أي: أعطاه تامًّا وافيًا. واستَوفى حقَّه: أخذه تامًّا وافيًا.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/180، والموصلّي، أولى ما قيل في آيات التّنزيل: 2/457.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ريب).

وتَوَفَّاه اللّه، أي: قبض روحه، والتَّوَفِّي والوفاة: الموتُ، وهو استيفاء الأرواح ما كُتب لها في الدّنيا باستعادة اللّه تعالى إيّاها بعد استيفائها ذلك، وسُمِّي الموت وفاة؛ لأنَّ الحيّ لا يموت إلّا بعد أن يستوفيَ أجلَه ورزقَه. ووفَّى بدَيْنِه: أدّاه وسدَّده، ووفَّى بالوعد وَفاءً وأَوفى به: حافظ عليه، وعمل به، أتمَّه وأنجزه، والوفاء ضدُّ الغدر[1]. والمعنى هنا: وجُوزِيَتْ.

3) ﴿كَسَبَتْ﴾: الكَسْب: ابتغاءُ شيء، وطَلَبه، وإصابَته، ومنه: الكَسْب: طَلَبُ الرّزق، وأصله: جَمْع الشّيء، وتحصيلُه شيئًا بعد شيء بجُهدٍ ما أخذًا من حيث كان، ويكون في الخير والشّرّ، والسّياق يحدّد المقصود، وسياق هذه الآية في الوعيد[2].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

يحكي اللّه ما سيكون عليه حالُ اليهودِ وأحبارِهم من عذابٍ إذا جمعهم في يوم الجزاءِ ليحاسَبوا على سوءِ معتقدهم وشنيعِ أفعالهم في يوم لا شكَّ في وقوعه، وهو يوم القيامة، وأخذ كلُّ واحدٍ جزاءَ ما اكتسب منَ الحسنات والسّيّئات، وهم لا يظلمون شيئًا؛ إذ ظهر من أعمالِهم ما يبيِّنُ أنهم من أشدِّ الناسِ عذابًا.

وفي الآية تهديد لهم، ووعيد، وتخويف من مآلهم يوم القيامة[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾:

خرج إلى معنى التّعجيب، والتّهديد، والتّفظيع، والتّهويل

ما احتواه النّظم الحكيم في هذه الآية مراد به التّعجيب من حال اليهود وتكذيبهم في قولهم، وتهويل ما سيحلّ بهم، وتهديدهم وتهديد كلّ مَن حاربَ اللّه ورسولَهُ وكفرَ، فالاستفهام هنا مستعمل مجازًا في التّعجيب، والتّهديد، والتّهويل، والتّفظيع؛ إذ صاروا إلى عذابٍ سيدهمهم في قضاء يوم وجزائه، لا حِيلة لهم في دفعه أو الخلاص منه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وفى).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كسب).
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/203، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 53.

والتّعبير بـ ﴿إِذَا﴾ لحتميّة يوم القيامة، و﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ توكيد لمعنى ﴿إِذَا﴾، وهو تحقيق الوقوع[1].

سرُّ العدول عن (بعثناهم) إلى ﴿جَمَعْنَاهُمْ﴾:

عدل عن (بعثناهم) إلى ﴿جَمَعْنَاهُمْ﴾؛ لتفظيع حالهم من جهة، وللتَّوَسُّع في الدّلالة من جهة أخرى؛ فيحتمل الجمع حال البعث، أي: ركّبنَا أجسادَهُم من مكوّناتِها، وجمعنَا الأنفُسَ والأرواحَ إلى أجسادها، أي: جمعنا أجزاءَهم، ووفّيت كلّ نفس ما كسبت، فيكون عطفًا للخاصّ على العامّ، ويحتمل جمعنا الّذين يحملون هذا الفكر بعضهم إلى بعض يوم القيامة في صعيد واحد، ووفّيت كلّ نفس ما كسبت، فيكون عطفًا للعامّ على الخاصّ.

وفي التعبير بقوله: ﴿جَمَعْنَاهُمْ﴾ دلالة على القهر، وإشارة إلى أنَّ جزاءهم من جنس عملهم، فقد دُعُوا من قبلُ؛ ليجتمعوا على كلمة سواء، ليؤمنوا بكتاب اللّه؛ ليحكم بينهم، فكان ردُّهم التولِّي والإعراض؛ فلمَّا رفضوا الاجتماع بالاختيار، عوقبوا بقهرهم على الجمع للحساب، وهم لا يُظلمون.

وقال: ﴿جَمَعْنَاهُمْ﴾ بضمير العظمة، ولم يقل: جمعهم اللّه أو جُمعوا؛ لبيان القدرة على ذلك، وهيمنة القائل سبحانه، أي: أتينا بهم جميعًا، فلا مفرّ لأحدٍ منهم من ذلك الجَمع، فناسبَ ضميرُ الجمع فعلَ الجمع.

بلاغة الكناية في ﴿لِيَوْمٍ﴾:

اليوم مقدار نسبيّ، وهو بمعنى المُدّة والوقت

قوله: ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ كنايةٌ عن موصوفٍ، وهو يوم القيامة، ويوم القيامة مختلف عن أيّام الدّنيا في المدّة والمقدار والصّفات، وفائدةُ هذه الكناية الرّدّ على أفكارهم ومُعتقداتهم الّتي افتروها؛ إذِ انتقل من جمع الأيّام في ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ إلى مفرد في ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ لبيان أنّ مقدار اليوم عند اللّه ليس كمقداره عند النّاس، فإذا كانَت مدّة عذابهم كما يدّعون ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، وليست يومًا واحدًا، فكم سيكون تعدادُها عند اللّه؟!.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/377، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/84، والآلوسّي، روح المعاني: 2/108، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/211، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/159.

دلالة النّفي في قوله: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾:

متضمّن لبيان الأمر

النّفي متضمّن للطّلب، أي: لا ترتابوا فيه، أو على بابه، والمعنى: لا ريب فيه عند المؤمن، أو عند المُخبَرِ عنه، أو حين يجمَعُهم، وفي العبارة إشعارٌ بأنّهم الآن في ريبٍ من مجيء ذلك اليوم، أو أنّهُم كما قالوا: في مأمَنٍ من عذاب ذلك اليوم، فيكونُ فيه تعريضٌ بهم[1].

وَوَصْفُ ﴿لِيَوْمٍ﴾ بأنّه ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ مُشعِرٌ بأنّهُم غير مطمئنّين في باطلهم، بمنزلة الّذي لم يكن له كتاب أصلًا، إذِ المقصود بالجمع الجزاء[2].

سرُّ العدول عن (ووفَّيناهم) أو (ووفّاهم الله) إلى ﴿وَوُفِّيَتْ﴾:

انتقل الخطاب منَ المتكلّم ﴿جَمَعْنَٰهُمْ﴾ إلى البناء لَمَا لم يُسَمّ فاعله؛ لدلالة سرعة الحساب، وسهولة ذلك عليه، وأشار إلى أنّ الجزاء أمر متحقّق لا بدّ منه بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ﴾، وأشار إلى سهولة ذلك عليه بالبناء لَمَا لم يُسَمّ فاعله، وأشار إلى دناءة النّفوس، وضعفها بتأنيث الفعل[3].

دلالة العطف بـ (الواو) دون (ثمّ) في قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ﴾:

من مات فقد قامت قيامته، ووفّي عمله

وهو الأَوْلى في مقام التّهديد والوعيد؛ ليُدلّل على أنّ كلّ إنسان رهين بما كسب، وأنّ حسابه موفًّى إليه لحظة موته، لذا أتبع ﴿جَمَعْنَٰهُمْ﴾ بـ ﴿وَوُفِّيَتْ﴾، وجعلهما في سياق واحد، بعد قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19]؛ ليكون بمثابة ردّ العجُز على الصّدر؛ لدلالته على سرعة إيفاء الأعمال.

بلاغة التّعبير بالنّفس في مجال الحساب والجزاء:

جاء الجزاء مخصوصًا بالنّفس، فهي الّتي توفّى ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/90.
(2) الحراليّ، تراث أبي الحسن الحِراليّ: 3/90.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/50.

نَفْسٍ﴾؛ لأنّ دأبها أن تَنفُسَ فتريد، وتختار، وتحبّ، وتكره، ولذلك اختصّ وعيدُ القرآنِ كلُّه بالنّفس في نفاستها[1].

دلالة التّعبير بـ ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾:

لمّا كان الجزاءُ شاملًا للخير والشّرّ قال ﴿مَّا﴾، أي: جزاء كلّ ما كسبت، وراعى معنى ﴿كُلُّ﴾ للوفاء بالمعنى.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، أي: لا يقع عليهم ظلم بزيادة ولا نقص[2].

بلاغة الحذف في الآية:

تقدير الآية: (فكيف إذا جمعناهم خاصّة ليوم لا ريب فيه، وجمعنا الأنفس كلّها، ووفّيت كلّ نفس ما كسبت، ووفّوا هم خاصّة ما كسبوا، وكلّ الأنفس لا تُظلَم، وهم لا يُظلمون)، ومن بلاغة ذكر المذكور، وحذف المحذوف؛ أنّه مايَزَ بين المُخاطبينَ منَ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهم طائفةٌ منَ اليهود، وبين النّاس جميعًا؛ لبيان فظاعة ما يقترفون من رفض رسالته ﷺ مع ما علموه منَ الحقّ في كُتُبهم، وردّ قبول الاحتكام إلى كتابهم لَمَا علمُوه من تصديقه لرسالته ﷺ، ثمّ مايَزَ في توفيَة الجزاء للأنفُس كلِّها بما كسبت، وتَوفِيَتِهم هم حسابَهم على ما اقترفوه بما كسبوا، وأنّهم لا يُظلمون جميعًا، ورحمة الله على الأنفُس عظيمة دونهم؛ إذ بتمييزهم هذا عنِ النّاس بقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، أي: يأخذون حقّهم تامًّا دون ظلم، ودون ما يصيب الأنفس من رحمته سبحانه من تجاوزٍ وتخفيفٍ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/51.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/51.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»